

نظرية إقبال عن الفن

الدكتور السيد محمد يوسف

يستنكر إقبال بشدة نظرية الفن للفن ، لأن الفن موهبة من الله الخالق البارىء المصور ، و على الفنان إذا قدرها حق قدرها أن يكرسها لخدمة المثل العليا فى معترك الحياة الواقعية ، يتبع ذلك أن الفن ليس أداة للترفيه والتسلية أو الهروب من الجهاد فى سبيل إصلاح أحوال البشر ، و قد أكد إقبال هذه النقطة بالذات بمناسبة أن الشعر فى الآداب الشرقية الاسلامية (بالأخص فى إيران و الهند) كان فى القرون الأخيرة انحط إلى درجة الأفيون للشعب القاعد عن العمل، حقاً يأسف إقبال لأن شعبه يرجو منه أن يتلهف إلى الغزل و الحديث عن المرأة بينما هو (أى إقبال) يقوده إلى مرتبة كسرى فى مهابة الحكم !

فالشعر إذن ليس للتلهية بل لاثارة الوعى و إيقاظ الهمم و الحث على العمل و الاستماتة فى تحقيق المثل العليا و ترويج الأقدار الخلقية السامية لأجل الخير و سعادة البشرية — و أخيراً يصرح إقبال بقوله : — ما أنا و الغناء بالشعر ؟ ما الشعر ، بالنسبة لى إلا وسيلة أتحيل بها لأهيب بالنوق الشاردة العائرة غير المزممة وأستدرجها إلى قطار الابل المنقادة للسير إلى الهدف المعين - لخلق الأقدار و تعيين الأهداف التى تنجذب و تلتئم حولها الأمة هو الوظيفة الأولى للشاعر ، و إذا فشل الشاعر فيها فويل للشعر و الشاعر و الأمة التى تمنى بهما ، وهذا بالضبط هو مغزى قوله ﷺ عن امرىء القيس « هو أشعر شعرائهم و قائد لوائهم إلى النار » فان الفنان إذا ضل و استطاع بتأثير فنه

أن يضل فهو أضر على الأمة من اتيلا أوجنكيز خان ، كما صرح إقبال بذلك .

و هذه النظرية — أعنى نظرية الفن للحياة و لخدمة المثل العليا فى الحياة الواقعية — تنبعث من الايقان بوجود إمكانيات غير متناهية لرقى الحياة الانسانية بحيث إن الله خلق الانسان فى أحسن تقويم ليزداد بسطة فى العلم بالأسماء مع التمييز بين مسمياتها و الوصول إلى كنه حقيقتها وماهيتها ، و بهذا العلم يستطيع الانسان أن يسيطر على القوى الطبيعية و يسخرها لانجاز وظيفته الأولى ، ألا و هى تتميم مكارم الأخلاق و مقاومة البغى و الطغيان لسيادة العدل فى المجتمع البشرى حتى يتحقق للانسان شرفه و تفوقه على جميع المخلوقات ، و إلا إذا تخلى هو عن وظيفته السامية تلك فيرد إلى أسفل سافلين من غير شك ، وليست الدعوة إلى الفن للفن إلا تنازلا عن مرتبة الشرف و إضاعة للمواهب الممتازة فى العمل غير الهادف و العبث الذى ربما يؤدى إلى المجون .

و الشعر الالتزامى أبعد شئ عن المنطق والفلسفة الجافة التى يتعب فيها العقل و لا يتأثر بها القلب و لا يتحرك لها الوجدان ، فان التفكير الفلسفى يبنى على تجزئة الحقيقة الواحدة الشاملة وتركيز الضوء على الأجزاء ، الواحد تلو الآخر ، ثم التقدم ببطء من مقدمة إلى أخرى للوصول إلى نتيجة لا تزيل الشك و لا تثلج الصدر ، والشعر لا يكون شعراً إلا إذا هز المشاعر وتجاوب مع الوجدان ، تلك القوة المدركة الأصيلة فى الانسان التى لا تتعارض مع العقل بل تربو على العقل فى القفز إلى إدراك الحقائق الأولية مرة واحدة و بأكملها بدون التورط فى التحليل و فحص الأجزاء على الانفراد و بدون التدرج على سلم المقدمات حتى تنعم النفس بالايقان الذى لا يزعزعه الشك و الذى يدفع الانسان مباشرة إلى العمل الدائب لتحقيق المثل العليا مذللا جميع الصعاب التى تعترض سبيله إليه .

فمهمة الشاعر الملتزم ليست بهينة كما يتوهم بعض الناس ، فهى تتلخص فى الانطلاق من العقل إلى الوجدان و تحويل الأفكار إلى الأحاسيس والمشاعر ، ولا يتأتى ذلك إلا للعباقرة الأفذاذ الذين رزقوا قسطاً وافراً من العقل الناضج و الشعور المرهف و الذوق الكامل ، و ربما يساعدنا فى تقدير هذه المهمة أن نتذكر أبا العلاء المعرى الذى عنى بدوره بعرض الأفكار الفلسفية فى القالب الشعرى إلا أن عرضه جاء فى كثير من الأحيان عرضاً بسيطاً ينقصه قوة التخييل و غلبة الشعور والتأثير الفنى ، إنما نرى من خلال أبياته صوراً للمجتمع تثير نقداً و حكماً من ناحية الحسن و القبح ربما يرضى العقل و لكن يترك القلب هامداً و لا يلهب النفس حماساً — و على العكس من ذلك يأخذ شعر إقبال بمجامع القلب لأنه يذيب الأفكار فى بوتقة العواطف و يحدث من القلب إلى القلب فيملأ النفس سروراً و غبطة وحزناً و ألماً وغضباً وثورة .

و لنأخذ مثالا آخر فأبو العتاهية يقدم لنا النصائح و يعظنا فى الأخلاق بقوله : « افعل كذا ، و لا تفعل كذا » و تلك طريقة الوعاظ والمرشدين ، وهكذا شعر أبى العتاهية إن هو إلا أوامر ونواهى منظومة بشكل بسيط سمج جداً ، و شتان بين من يقول « لا تكذب » و بين من يثور غضباً و نفوراً ضد الكذب ويبعث فى النفوس داعياً إلى الجهاد ضد الكذب ، فاقبال لا يستعمل لغة الوعظ و الارشاد بل ينقل حماسه للخير وثورته ضد الشر إلى مستمعيه بلغة العواطف ، فهل من شك فى أن مهمة توجيه العواطف إلى أهداف الخير أصعب بكثير من إرضاء الذوق الفنى فقط من غير مبالاة بالتفكير فى الأهداف و المثل العليا ؟

فالشاعر الملتزم بوصفه شاعراً ينشر الأفكار الصالحة لا كأفكار مجردة بل كأنها بواعث لحالات نفسية يعانيها الشاعر ويتنفس عنها بالشعر بصفة اضطرارية

كنفثة مصدور حتى يشارك المستمعون تلك الحالات و يسايروه إلى الغاية المقصودة ، و طبعاً هذا يتطلب منه الاخلاص التام والايمان القوى بالمثل التى يلتزمها ، و هذا الاخلاص و الايمان هو سر خلود الآثار الأدبية و الفنية ، كما يقول إقبال فى معرض الكلام عن « جامع قرطبة » : —

« سواء كانت المادة هى اللون أو الآجر و الحجر أو الشنك أو الكلمة و الصوت ، لا توجد « آية الفن » إلا بدم الكبد »

نعم ! « دم الكبد » أو حرقة القلب أو قوة الاخلاص و حرارة الايمان بمبدأ أو بمثل أعلى هى جوهر الشعر الالتزامى كما أنها هى السبب الحقيق لتأثيره فى النفوس و قوام خلوده و بقائه عبر الأزمنة و الأجيال .

وبما أن عظمة الفن إنما تقدر بعظمة الهدف يقرر إقبال أن هدف الشعر هو خلق الانسان الكامل ، و هو بالفعل يضاهى هدف الرسالات السماوية ، وعلى هذا حق للشاعر أن يكون من ورثة الأنبياء ، فليس الفن فناً إذا لم يساهم فى نمو الحياة و ازدهارها و ازدياد جمالها الخارجى و المعنوى ، فالفنان الخالق يشبهه إقبال بنسيم السحر الذى إذا هب فى البستان تفتحت البراعم و فاحت العطور و دبت الحياة وسطع الجمال ، ثم يتساءل إقبال : و ما هو ذلك النسيم الذى يترك البستان خامداً مضمحلا ؟ مشيراً بذلك إلى الشاعر أو أى فنان آخر ، الذى لا يهدف الخلق و لا يزيد المجتمع الانسانى حيوية و جمالا .

ثم ما هى علاقة الفنان بالطبيعة و جمالها ؟ إن الذى يعكس الطبيعة فى فنه كما تعكسها عدسة آلة التصوير ليس مبدعاً بل محاكياً فقط ، كما إن الذى يكتفى بمشاهدة الطبيعة لن يكون عالماً بل متفرجاً فقط ، إذن جمال الطبيعة ليس إلا وسيلة لحمل الانسان على تفسيرها تفسيراً علمياً وأخلاقياً فى وقت واحد ، فالتفسير العلمى يهدى عالم الطبيعة لاكتشاف القوى الجبارة الكامنة فيها ، والتفسير

الأخلاق يوفق الشاعر لاعتبار وجوه الخير من غرض الصانع فى صنعه ، وكلا التفسيرين ينتج عن الاستيلاء على الطبيعة والقدرة على التصرف فيها و تسخيرها لما فيه خير البشرية و سعادتها و رخاؤها ، أما الاغراق إلى حد الذهول فى تأمل مفاتن الطبيعة ، الذى ربما يؤدى إلى تقديسها والسجود لها ، فذلك يعتبر إهانة لشرف الانسان كما أن الخضوع أمام مظاهر العظمة فى الطبيعة مثل القمم الشامخة والأنهار الزاخرة إنما منشأه عدم معرفة النفس وعدم التيقظ لكفاءات الانسان و مزايا تقويمه بحيث إنه و إن كان صغير الجرم خص بعلم الأسماء الذى يؤهله للتغلب على العالم المادى كله ، لا يردعه عن ذلك رادع ولا يهوله شئ من الرعد والبرق و البحر اللجى ، و لذلك لا يفتأ إقبال يؤكد للانسان مزيته على مظاهر الطبيعة كلها مهما كانت فاتنة أو مهولة ، فان النرجس مثلا وإن كان يضاهى عين الانسان فى الحسن إلا أنه حرم من حاسة البصر وبالتبع حرم من العمل بينما عين الانسان تشارك فى الخلق و العمل الابداعى و ذلك بتخطيط البستان و ترتيب الأشجار و الأزهار على نموذج أحسن فأحسن .

نعم ! إن الطبيعة لا توتى خزائنها إلا بمقدار جهد الانسان و ربما تبدو كأنها تعوق الانسان عن الرخاء والهناء إلا أنها فى الواقع لا تعدو أن تتحدى قواه وإذا قبل الانسان هذا التحدى فانه سيجد الطبيعة منقادة إليه تجرر أذيالها ، و هذه حكمة بالغة من الله أن لا تغل الأرض إلا لمن يجشم فلاحتها ، ولكن تسخير السماوات و الأرض و إعداد القوة المادية و توفير أسباب الرقى العلمى و الحضارة التكنولوجية ليس غرضاً مقصوداً لذاته ، إنما هو وسيلة لتحقيق المثل العليا و الأقدار الخلقية السامية فى المجتمع الانسانى ، و منها إقامة العدل و بسط الأمن و السلام فى العالم ، و لذلك لا يحصد الثواب فى الآخرة إلا من زرع العمل الصالح فى الدنيا .